

**مشكلات الكتاب العربي  
من التأليف إلى القراءة**



إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم،

أما بعد،

فإن موضوعنا هذا هو عن «مشكلات الكتاب العربي من التأليف إلى القراءة». ولا شك أن الحديث عن الكتاب العربي حديث هام، كيف لا، وقد كان الكتاب وسوف يبقى وعاء الثقافة الرصينة والفكر المستقر، ومهما تعددت أوعية الثقافة ووسائلها فسوف تبقى للكتاب مكانته.

ثم إننا نقصد في حديثنا هذا المعنى الواسع لكلمة كتاب، فالفعل كتب يعنى دُونَ أو سجل، وعلى هذا فإن كلمة كتاب يمكن أن تتسع لتشمل كل ما هو مكتوب أو مدون أيا كان الشكل الذى ظهر عليه، وسوف نجد في هذا الصدد أشكالا متعددة مثل المواد المطبوعة: الكتاب، والمجلة، والتقرير، والصحيفة، إلخ، وأشكالا غير مطبوعة مثل الأشرطة والأفلام، وغيرها. وعلى ذلك، فإن كلمة مكتبة بهذا المفهوم يمكن أن تتسع لتشمل كل أنواع المكتبات.

والكتاب بهذا المفهوم الشامل يستوعب كل مصادر المعرفة والمعلومات ونريد من هذا التوضيح بيان أمرين فى الغاية من الأهمية بالنسبة لموضوعنا:

**أولهما:** أن المشكلات التى سوف نتحدث عنها مشكلات عامة تصدق على الكتاب كما تصدق على غيره من مصادر المعلومات. . . ولما كان الكتاب هو الوسيلة الأقدم، فإن ما يصدق عليه يصدق بصورة أكثر حدة على غيره من المواد.

**وثانيهما:** أن مصادر المعلومات هى أوعية العلم والثقافة والفكر، ولذلك فإن الحديث عن مشكلاتها هو حديث عن هموم العلماء والمثقفين والمفكرين؛ فإن المشكلات التى يعانى منها هؤلاء تؤثر فى دورة الانتاج الفكرى.

أي أن حديثنا سوف ينصب علي مشكلات العلم والثقافة والتعليم والبحث التي هي نفسها مشكلات الكتاب العربي، وهي جميعا قضايا حيوية لأنها ركائز الحياة في العصر الحديث.

ومما يزيد في أهمية الموضوع أننا نعيش الآن عصر المعلومات، فقد أصبحت المعلومات تلعب دورا هائلا في كل مجالات الحياة. وليس معني هذا أن المعلومات لم يكن لها نفس الدور في الماضي؛ فالمعلومات كان لها دور حيوي في كل عصور الحضارة. وقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة كتاب، فمعجزة الرسول ﷺ هي القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونتاج هذه الحضارة علوم وكتب ملأت الدنيا شرقا وغربا.

لكننا نقصد بعصر المعلومات تعاطم الدور الذي تلعبه المعلومات في الوقت الراهن؛ فالعصر عصر العلم، أي أن الإنسان قد اعتمد المنهج العلمي أساسا لحل مشكلاته في جميع المجالات: السياسية، والاقتصادية، والصناعية، إلخ، كما أصبح يعتمد علي العلم والمعلومات في اتخاذ القرارات. ومما لا شك فيه أن المعلومات هي إحدى الركائز الأساسية للدول المتقدمة، كما أن نقصها أو القصور في انسيابها وتنظيمها من الاسباب الرئيسية لتخلف الدول المتخلفة.

وإزاء أهمية الموضوع من ناحية وضخامة المجال من ناحية ثانية فسوف نركز علي القضايا العامة دون الدخول في التفاصيل الدقيقة حتي لا نتجاوز حدود الحيز.

## أبعاد الإنتاج الفكري العربي

يمكن أن نحدد مجالات أو أبعاد الانتاج الفكري العربي علي النحو الآتي:

١- المادة التي ظهر عليها الإنتاج الفكري العربي؛ وتشمل هذه المواد المطبوعة مثل الكتب والمجلات والتقارير والرسائل الجامعية، إلخ، والمواد غير المطبوعة مثل الأشرطة والأفلام وغيرها.

وقد سبقت الإشارة إلى هذه النقطة .

## ٢- البعد اللغوي؛ ويشمل ما يأتي:

- أ - ما كتب باللغة العربية لغة العرب سواء نشر داخل البلاد العربية أم خارجها .
  - ب - ما كتبه عرب بلغات أجنبية سواء نشر بالبلاد العربية أم خارجها .
- وبديهي أن ما كتبه العرب حتي ولو كتب بلغات غير العربية هو إنتاج فكري عربي نسبة إلى العرب لا نسبة إلى العربية لغة العرب . ومن المعروف أن كثيرا من المؤلفين وخاصة في المجالات العلمية يفضلون نشر إنتاجهم في المجلات الأجنبية وبخاصة المجلات التي لغتها الإنجليزية . ولهذا الاتجاه أسباب متعددة، منها أن يُقرأ الكاتب، وأن يؤخذ إنتاجه بعين الاعتبار عند تقويمه (الكاتب)، وأن يلفت إنتاجه القراء في بلاد غير بلده، وأن يتفادي مشكلات التعريب والمصطلحات، إلخ .
- والإنتاج الفكري العربي في المجالات العلمية، مثل الطب والكيمياء، إلخ، كثير باللغة الإنجليزية، ومن الضروري أخذه في الحسبان عند الحديث عن مشكلات الانتاج الفكري العربي .

## ٣- البعد الجغرافي؛ ويشمل الدوائر الآتية:

- أ- الدائرة القطرية؛ مثل المملكة العربية السعودية أو الكويت أو مصر أو سوريا .
  - ب - الدائرة العربية؛ وتشمل الوطن العربي كله .
  - ج - الدائرة الخارجية؛ وتشمل العالم الخارجي .
- ومن الواضح أن البدين اللغوي والجغرافي مرتبطان أشد الارتباط .

٤- البعد الزمني؛ ويشمل الانتاج الفكري العربي طوال أربعة عشر قرنا هي عمر التأليف باللغة العربية . هذه القرون اختلفت فيها حالة الإنتاج الفكري العربي من عصر إلى عصر؛ ففي عصر ازدهار الحركة العلمية في العالم الاسلامي لم يكن هناك نفس المشكلات التي نعاني منها الآن . ثم انتقل زمام الحضارة والعلم إلى الغرب فتقدم العالم الغربي تقدما كبيرا كان له أثره بطبيعة الحال علي الانتاج الفكري .

ثم بدأت حركة الاصلاح في العالم العربي والاسلامي في العصر الحديث في محاولة لسد الفجوة الحضارية التي تفصلنا عن العالم المتقدم، ووجدنا أن من الضروري أن نبدأ من جديد لتعويض التخلف، وهنا ظهرت المشكلات التي سوف نتحدث عن بعضها فيما بعد ومن أهمها مشكلة تعريب المصطلحات.

ورغم أن المشكلات القائمة حاليا هي من نتاج العصر الحديث إلا أن ثمة جانبا هاما يجدر الالتفات إليه وهو قضية التراث كتناج فكري ومادي لعصر الحضارة الإسلامية الزاهر، وهي قضية تشغلنا كثيرا وهي علاقة هذا التراث بالحاضر والمستقبل، أو ما يعرف بقضية الأصالة والمعاصرة. وسوف نعالج هذه القضية في حينها.

## دورة الانتاج الفكري

ليس من أهدافنا هنا أن نتعرض لدورة الانتاج الفكري بالتفصيل، وحسبنا أن نشير فقط إلي أن هذه الدورة تبدأ بإنتاج مصادر المعلومات وتنتهي بالقارئ أو المستفيد، وأن هذه الدورة تمر بالمراحل الآتية:

- ١- تأليف الكتاب.
  - ٢- النشر والطباعة.
  - ٣- توزيع الكتاب وبيعه.
  - ٤- وصول الكتاب إلي القراء عن طريق الشراء، أو وصوله إلي مؤسسات المعلومات.
  - ٥- تنظيم مصادر المعلومات في المكتبات.
  - ٦- الاستفادة من مصادر المعلومات في البحث أو في التشقيف أو في التعليم، إلخ.
- ثم تعود الدورة من جديد. وكلما زاد عدد المؤلفين كلما زاد كم الانتاج

الفكري، كلما زاد عدد المكتبات وزادت مجموعاتها من الكتب ومواد القراءة الأخرى. وهذا بدوره يؤدي إلى زيادة عدد القراء، ومن ثم زيادة عدد المؤلفين لتسرّع من جديد دورة الانتاج الفكري.

وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد، وربما في أكثر من مناسبة عند الحديث علي قضية الأمية وأثرها في ضعف الانتاج الفكري العربي، ثم قضية الترجمة وعلاقتها بضخامة الانتاج الفكري المنشور.

وأجد من المناسب قبل أن أتحدث عن كل مرحلة من المراحل السابقة أن أتحدث عن المعوقات التي تعوق العمل العلمي والحركة العلمية إجمالاً، وذلك أن التأليف والترجمة وغيرهما من عناصر المسئولية عن الأعمال العلمية تتأثر بالعوامل التي تؤثر في الحركة العلمية إجمالاً، وهذا ينصب بدوره علي إنتاج الكتاب. ولذلك فيحسن أن نبدأ بالعوامل المشتركة التي تعوق الحركة العلمية.

وأعيد إلي الأذهان ما ذكرته في المقدمة من أن مشكلات الكتاب العربي هي مشكلات العمل العلمي والثقافي بصفة عامة، لأن الكتاب هو نتاج العقل وثمره الفكر وحصاد العمل العلمي، وكل ما يؤثر علي العلم والفكر والثقافة - إن سلباً وإن إيجاباً - يؤثر علي إنتاج الكتاب، فالحديث عن معوقات العمل العلمي هو نفسه حديث عن مشكلات إنتاج الكتاب وتفشيه وانسيابه وتداوله. أما المشكلات التي يختص بها الكتاب نفسه فسوف نتحدث عنها عند الحديث عن مشكلات صناعة الكتاب.

# مشكلات العمل العلمي ومعوقاته في الوطن العربي

## ١ نفشي الأمية<sup>(١)</sup>

الباحثون والعلماء والمثقفون هم إفراس طبيعي للمجتمع المتعلم القارئ. ولذلك فإنه كلما اتسعت قاعدة التعليم وكلما زاد عدد المتعلمين كلما زاد عدد القراء، كلما زاد عدد العلماء والباحثين والمثقفين، وهذا يؤدي إلي زيادة التأليف والمؤلفين، وهذا بدوره يؤدي إلي تسارع دورة التأليف أو دورة الإنتاج الفكري التي أشرنا إليها من قبل.

ومما لا شك فيه أن زيادة نسبة الأمية في مجتمع من المجتمعات يؤثر تأثيرا سلبيا علي دورة التأليف والإنتاج الفكري. ولا شك أن نفشي الأمية في معظم أجزاء الوطن العربي هو أحد الأسباب الرئيسية التي تعوق العمل العلمي والتأليف وهذا يتضح من دراسة سريعة لبعض إحصاءات الإنتاج الفكري.

تقول إحصاءات اليونسكو<sup>(١)</sup> (Statistical Yearbook) أن إنتاج العالم من الكتب كان في سنة ١٩٥٣ : ٢٦٩٠٠٠ كتابا في السنة، وقفز في سنة ١٩٦٥، أي بعد اثنتي عشرة سنة إلي ٤٢٦٠٠٠ كتابا في السنة، أما في سنة ١٩٧٧ فقد قفز إلي ٥٩١ ألف كتابا في السنة. أي أنه خلال أقل من ربع قرن تزايد إنتاج العالم من الكتب بما يزيد عن الضعف. وهذا يدل علي تسارع دورة الإنتاج الفكري.

ومما يذكر أن أقل من خمس هذا الإنتاج فقط يجي من العالم الثالث حيث

---

(١) أثناء إعداد نص هذه المحاضرة نشر في جريدة الوطن بالكويت بتاريخ ١٦/٥/١٩٩٠ أن دراسة صادرة عن منتدى الفكر العربي بعمان حول مستقبل التعليم بالوطن العربي - كشفت عن أن نسبة الأمية ما تزال تشكل ٥٠٪ بالوطن العربي، كما أوردت الدراسة أن عدد الأميين يتزايد إذا أضيف إليهم نسبة ١٠٪ يصنفون علي أنهم يلمون بالقراءة والكتابة ولكن هذا لا يعني سيطرتهم علي مهارات القراءة والكتابة.

يعيش ثلثا سكان العالم<sup>(١)</sup>. وهذا يدل علي ضعف إنتاج الكتب في الدول النامية بسبب معوقات العمل العلمي والتي من أبرزها بلا شك تفشي الأمية .

كذلك يمكن مقارنة إنتاج مصر وهي أكبر الدول العربية بإنتاج بعض الدول التي تقاربها في عدد السكان، مثل بريطانيا. سوف نجد أن إنتاج بريطانيا يصل إلي أربعين ألف كتابا سنويا، في حين يصل الانتاج الفكري المصري في أحسن حالاته إلي خمسة آلاف كتابا في المتوسط . وليست هذه الآلاف الخمسة كلها كتباً مؤلفة وإنما تضم كتباً مترجمة، وكتباً تراثية ليست من إنتاج العصر الحديث . أما من حيث القيمة العلمية فإنها تضم كتباً دراسية وكتباً مدرسية، إلخ؛ ولكننا لا نريد الحديث عن هذا الآن وإنما نكتفي فقط بالاحصائيات البسيطة .

فإذا كان هذا هو حال مصر وهي أكبر أقطار الوطن العربي وأكثرها إنتاجاً، فإننا يمكن أن نستنتج أن إنتاج الوطن العربي في مجمله أقل بكثير مما تؤهله إمكاناته البشرية والمادية وعدد الجامعات، إلخ . وهذا يدل علي ضعف هذا الانتاج . وسوف نعود إلي هذه النقطة فيما بعد .

## ٢ عدم كفاية النظام التعليمي

رغم أنني أعمل في حقل التعليم الجامعي منذ ثلاثين سنة، إلا أنني لست متخصصاً في مجال التربية، ومما لاشك فيه أن التربويين أقدر مني علي معالجة قضية كفاية النظام التعليمي في الوطن العربي من عدمه .

ورغم ذلك، فإننا يمكن أن ننظر إلي الموضوع من زاوية أخرى، فلو افترضنا أن نجاح أو فشل النظام التعليمي يمكن قياسه من خلال رصد النتائج، فإن من السهل أن نستنتج أن النظام - أو النظم التعليمية في الوطن العربي لم تنجح في أداء رسالتها . ولو أن هذه النظم نجحت في أداء رسالتها لما كنا الآن علي الحال التي نحن عليها - أقصد الضعف الذي تتسم به جوانب حياتنا، ذلك أن التعليم هو أساس كل تقدم وركيزة كل إصلاح .

Donald Davison , Bibilgraphic Control. 2nd ed, 1981. p. 7 - 8.

(١)

ومن المعروف أن كل أمة لها فكر أو فلسفة أو عقيدة تشكل أساس حياتها وركيزة وجودها، وأن كل أمة تحول فكرها إلي أهداف تسعى لتحقيقها، ثم تعهد بهذه الأهداف إلي مؤسساتها المختلفة لكي تحولها إلي استراتيجيات ووظائف لتحقيق هذه الأهداف.

ويأتي في مقدمة المؤسسات التي يناط بها تحقيق أهداف الأمة المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية ومؤسسات المعلومات والمكتبات، وهي أركان أربعة لأية نهضة: تعليم وعلم ومعلومات وإعلام، وكلها مشتقة من فعل ثلاثي واحد: عَلِمَ. وسوف نفرّد العلم والمعلومات بحديث منفصل. وأما الإعلام فإن دوره هو أن يهيئ الشعب - من خلال وسائل الإعلام المختلفة - للقيام بالدور المنوط بالأمة. ويبقى دور المؤسسات التعليمية من مدارس وجامعات، ودورها هو صناعة العقول، وهو أهم دور لمؤسسات الدولة، لأن صناعة البشر أصعب من أى شئ آخر. والإنسان يصنع، فالمولي جلت قدرته يخاطب موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَلتصنع على عيني﴾؛ والرسول المصطفى ﷺ يقول عن نفسه «أدبني ربي» فأحسن تأديبي» ولكي تؤدي المؤسسات التعليمية دورها في المجتمع فلا بد أن تتحول المدارس والجامعات إلي مصانع للعقول.

والحالة التي عليها معظم الدول العربية الآن تدل علي أن المؤسسات التعليمية لم تؤد دورها علي الوجه الأكمل، مع أن أي حل يجب أن يبدأ مع إصلاح النظام التعليمي من خلال فكر تربوي يشتق أهدافه من فكر الأمة العربية الإسلامية ويسعي إلي تحقيق هذه الأهداف امتثالاً لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

فالأمة العربية الإسلامية لها رسالتها في العالم، فهي خير أمة أخرجت للناس ولكن تناسي هذه الرسالة أو نسيانها، والتماس شخصية أخرى في هذا الفكر أو ذاك يعدها عن الطريق القويم وهو السبب فيما آلت إليه أحوالنا.

### ٣ غياب التنظيم العلمي

الواقع أن هناك عدة قضايا مترابطة تتعلق جميعا بالعلم والبحث العلمي وتتناول جوانب مختلفة للعمل العلمي، وسوف أتحدث عنها تباعا.

وأبدأ هنا بقضية غياب التنظيم العلمي باعتبارها أحد معوقات النهضة العلمية.

يقصد بالتنظيم العلمي أن يكون هناك خطة شاملة Master Plan للبحث العلمي علي مستوي الدولة. والمقصود بالخطة الشاملة خطة تحصر القضايا والمشكلات وتضع برامج زمنية وتنفيذية لبحث هذه المشكلات وتحقيق الامجازات في كافة الميادين العلمية والتقانية<sup>(١)</sup>: Scientific and Technological أي أن مجرد وجود مركز للبحوث العلمية والتقانية هنا أو هناك لا يكفي بل لابد من وجود خطة شاملة للبحث العلمي علي المستوي الوطني.

والحق أن قضية البحث هي من أهم عوامل التقدم في المجتمع الحديث. فالعصر الذي نعيشه الآن هو عصر العلم والتقانة، والتقدم العلمي هو أساس الصراع والمنافسة بين الكتل الكبرى، بل وفي داخل كل كتلة، فكل دولة من الدول المتقدمة تدخل مع غيرها سباقا لا هوادة فيه؛ كذلك الذي يحدث بين الولايات المتحدة وكل من ألمانيا واليابان، أو بين ألمانيا وفرنسا، بل إنه في داخل الدولة الواحدة تتنافس الشركات الصناعية الكبرى فيما بينها في كل مجال من مجالات الصناعة؛ مثال ذلك صناعة الطائرات أو السيارات أو الحاسبات الالكترونية، وهي تتنافس في الوصول إلي أحدث الابتكارات حتي تسبق غيرها إلي غزو الأسواق العالمية لكي تحقق ما تصبو إليه من ربح.

(١) كلة تقانة هنا تقابل كلمة Technology ومنها تقانية أي تكنولوجية. وقد درج الكتاب والمحدثون علي أن يستعملوا كلمة تقنية أو كلمة تكنولوجيا. وكنت أفعل ذلك أيضا حتي سمعت حديثا للشيخ علي الطنطاوي في تليفزيون الرياض ذكر فيه كلمة تقانة كمقابل بدلا من كلمة تقنية، وهي علي وزن صناعة، واقنمني هذا الشرح وأعجبني هذا الاشتقاق واستخدمتها لأول مرة في كتاب ترجمته وقت أن كنت أعمل بالرياض وهو: تنظيم المعلومات في المكتبات ومراكز التوثيق، وجاءت الكلمة في عنوان الفصل الحادي والعشرين وهو عن لغات التكشيف في العلم والتقانة وقد صدر عن دار العلوم بالرياض سنة ١٩٨١.

وعلي مستوي الدول النامية فليس أمامها من طريق إلا أن تبني طريق العلم وسيلة لحل مشكلاتها، وذلك لتعويض التخلف وسد الفجوة الهائلة التي تفصلها عن الدول المتقدمة. وما لم تسرع هذه الدول خطاها فإن هذه الفجوة سوف تتسع ولا تضيق لأن الدول المتقدمة تملك إمكانات التقدم أكثر من الدول النامية ولذلك فهي تتقدم بمعدلات أكبر، وعلي الدول النامية إذا أرادت اللحاق بركب التقدم أن تسرع في معدلات التقدم، ولا يتم هذا إلا من خلال التنظيم العلمي ومن خلال التغلب علي كل العوائق الأخرى التي ذكرناها في هذه المحاضرة.

#### ٤ عدم كفاية مساهمة الدولة

إذا كنا قد اتفقنا علي أن السبيل الوحيد أمام الأمم النامية هو تبني العلم وسيلة للتقدم، فمعني ذلك أن الدولة في هذه الأمم يجب أن ترصد لذلك الميزانيات الملائمة. ومن الحقائق المسلمة الآن أن المال الذي ينفق علي التعليم والعلم وما يتبعهما من مؤسسات هو استثمار بل يمكن القول أنه أفضل استثمار. ولذلك نجد أن الدول المتقدمة تخصص جزءا غير يسير من ميزانياتها للبحث العلمي. كما أن البحث العلمي في الدول المتقدمة لا تنفرد به الدولة بل تقوم به أيضاً الشركات والمؤسسات الصناعية والاقتصادية المختلفة.

فإذا انتقلنا إلي الأوضاع في الوطن العربي، فسوف نجد أن البحث العلمي يتأخر كثيرا في سلم الأولويات حيث يسبقه كثير من المجالات في كثير من الدول العربية، ويعد في بعض الدول نوعا من الترف دون عائد حقيقي. ولذلك فمن الضروري أن تتغير نظرة الدولة إلي التعليم والبحث العلمي وأن ترصد الامكانيات اللازمة التي تجعله يؤدي الدور المنتظر منه وأن تعطيه الأولوية علي غيره حيث أنه يمثل أفضل استثمار.

#### ٥ هجرة العلماء

هجرة العلماء - أو نزيف العقول - معناها انتقال العلماء من الدول النامية إلي

الدول المتقدمة، وتعني كذلك انتقال العلماء من دول متقدمة إلي دول أكثر تقدماً.  
وأسباب هجرة العلماء كثيرة، وقد تكون الظروف الاقتصادية سبباً من الأسباب.  
ولكن لا شك أن هناك أسباباً أخرى لعل في مقدمتها أن البيئة العلمية في وطننا  
العربي هي في حالات كثيرة بيئة غير صحية وغير صالحة لتقدم البحث العلمي،  
وخاصة في تلك الدول التي تكثر فيها هجرة العلماء إلي أوطان أخرى أكثر تقدماً  
وأصلح بيئة علمية.

ومما لا شك فيه أن المعوقات التي ذكرناها والتي سوف نذكرها بعد كلها عوامل  
تؤثر في البيئة العلمية وتجعلها غير مناسبة للعمل العلمي وغير محفزة لطموحات  
العالم الذي يريد أن يتفرغ للعمل العلمي وأن يعطيه عمره كله، وقديماً قال أسلافنا  
العظام إن العلم لا يعطيك بعضه حتي تعطيه كلك، فأني للعالم في وطننا العربي  
الحبيب أن يعطي العلم كل نفسه وجل عمره في هذه البيئة العلمية.

والمفروض أن العلماء هم أبناء الدولة ترعاهم وتقدم لهم كل ما يطلبون ليس  
لمصلحتهم بل لمصلحة الوطن في المحل الأول، فالعالم الحقيقي لا يريد أكثر من أن  
تتاح له الامكانيات المناسبة لكي يتفرغ لعمله، وهو لا يريد شيئاً من متاع الحياة  
الدنيا الغرور، بل يريد الظروف المناسبة للعمل حتي لا ينشغل بالجري وراء أمور  
أخرى تأخذ من وقته وجهده وطاقته وتحد من حركته وتطمغ نفسيته وإرادة البحث  
فيه. وهذا ما يحدث في كثير من أجزاء وطننا العربي الحبيب حيث لمجد العلماء  
يفتقدون التشجيع المادي والأدبي بحيث يضيع وقتهم وتستهلك طاقاتهم في أمور لا  
صلة لها بالعلم والعلماء.

وهناك أسباب أخرى تجعل العلماء يهربون إلي بيئات أفضل ومن ذلك ما يحدث  
من التحاسد والتباغض والنزوع إلي الفردية، وهذه كلها أمور ضد العمل العلمي،  
حيث أن العمل العلمي في الدول المتقدمة يسوده الآن روح الفريق.

ولاشك أن كل من له صلة بالبيئة العلمية يعرف الآفات التي تجعل هذه البيئة  
غير صالحة لعمل العلماء الحقيقيين، وكثيراً ما يجد العالم نفسه يتمثل قول أبي  
الطيب المتنبي:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عانا  
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا  
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا  
وكأننا لم يرض فينا بريب الدهر حتي أعانه من أعانا  
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا  
ولو أن الحياة تبقي لحي لعددنا أضلنا الشجعانا

وأركز علي البيتين الرابع والخامس فهما يعبران تعبيراً قويا عما يحدث بين العلماء في كثير من الأحوال. وكأنه لا يكفينا قصور الوسائل والمعوقات الأخرى حتي نفسد بأيدينا حياتنا وندمر بعضنا. وفرق بين التنافس والتحاسد. فالتنافس صفة محمودة تؤدي إلي سباق مستحب، أما التحاسد فهو صفة مذمومة تأكل في الدين كما تأكل النار في الحطب الهشيم وكذلك تفعل في الحياة العلمية فهي تجعل العالم ينشغل بدرء الطعنات التي توجه إليه وتوقى الخطر الذي يحيط به.

أين ذلك من العلماء أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، فالإمام الشافعي رضي الله عنه كان يقول: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب. هذا هو أدب الخلاف الذي يجب أن يسود حياتنا العلمية. وقد بدأ الشافعي حياته الفقهية تلميذاً للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه إمام أهل المدينة علي ساكنها أفضل الصلوات وأتم التسليم، ثم رحل إلي العراق وتلمذ علي يد الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة رضي الله عنهم جميعاً. وكان محمد بن الحسن يصله ويعينه بماله. وخرج الشافعي بعد هذا كله بمذهبه الجديد. هذه هي البيئة العلمية التي تخرج رجالاً من أمثال الشافعي ومالك وأبي حنيفة ومحمد بن الحسن وغيرهم والتي خلفت لنا تراثاً علمياً نزهو به علي مر العصور.

أما البيئة العلمية في كثير من أجزاء وطننا العربي فقد ولج إليها من الأبواب

الخلفية دخلاء عليها يعرفون هدفهم جيدا ويصلون إليه بمنتهى الدقة والمهارة وهم ليسوا علماء ولا يريدون أن يعملوا، يسوءهم أن يعمل الناس فيجروهم إلي مسالك غير علمية تستنفد طاقتهم وتضعف من عزيمتهم وتصل بهم في كثير من الأحوال إلي اليأس من صلاح الأحوال والقنوط من العمل، حيث يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون بل ربما فاز الأخيرون بكل شيء. وهذه من علامات الساعة كما أخبرنا رسولنا الكريم ﷺ حينما أجاب السائل عن الساعة فقال: إذا ضيعت الأمانة فانظر الساعة، فعاد السائل مستوضحا: ومتي تضيع الأمانة، فقال الرسول ﷺ: إذا وُسدَ الأمر إلي غير أهله فانظر الساعة.

وإلي جانب كل ذلك فهناك المشكلات الإدارية والبيروقراطية التي تضيع وقت الباحث في إجراءات تضعف من عزيمته وتضيع من وقته وجهده وطاقته.

وليس معني هذا أننا نوافق علي الهجرة أو نؤيد هؤلاء الذين هجروا أوطانهم، فهؤلاء هربوا من الميدان ولم يؤدوا أية خدمة لأوطانهم بل آثروا الراحة العاجلة، وخدموا أوطانا أجنبيي ليست في حاجة إليهم مثل حاجة أوطانهم، وأصبحوا عوناً لبلاد ربما تقف في كثير من القضايا موقف العداء لأوطانهم وهم لا يملكون إلا الولاء لها لأنهم أصبحوا من مواطنيها.

وخلاصة القول في هذه القضية قضية هجرة العلماء أن البيئة العربية وخاصة في الأقطار التي يهاجر منها العلماء، وبسبب ما ذكرت من أسباب وظروف، أصبحت بيئة طرد للعداء وأثر كثيرون منهم أن يهجروا أوطانهم إلي بلاد أجنبيي تحقق لهم طموحاتهم وتوفر لهم الامكانيات، وكل بحسب نيته وكل بحسب ما يُسرُّ له. فمن كان يريد علما يجد علما ومن كان يريد مالا وعلما يجدهما وهكذا.

وهذه الهجرة إلي الدول المتقدمة لها أخطر الآثار علي الدول النامية لأن هذه الدول في أمس الحاجة إلي خبرة أبنائها لتعويض التخلف وسد الفجوة الحضارية التي أشرنا إليها، فإذا بهم يهجرونها إلي بلاد متقدمة أصلا، ويسهمون في تقدم تلك البلاد. وأما من بقي من العلماء فهم يصارعون كل الظروف وتختلف

إنتاجيتهم بحسب درجة إيمانهم وصلابتهم، وقد تصرعهم الظروف وقد يصرعونها ويظلون يعملون ويتتجون رغم كل شيء، وقد يصير بهم الأمر إلى العزلة والانكفاء علي النفس فتخسرهم أوطانهم.

## ٦ ضعف التعاون الاقليمي

كما ذكرنا من قبل فإن البحث العلمي مكلف، وكثير من الدول قد تقصر إمكاناتها وحدها عن القيام به بالصورة المطلوبة، ولذلك فإن الدول العربية في أشد الحاجة إلى التعاون العلمي فيما بينها حتي تكتل الامكانيات لتحقيق أهدافها. ثم إن التعاون يؤدي إلى عدم تكرار البحوث. والبيئة العربية متشابهة في كثير من الأمور، ومن ثم تتشابه كثير من القضايا المبحوثة، وبدلاً من أن تبحث نفس المشكلة في أكثر من قطر عربي فإن تكتيل الجهود وتقوية التعاون يؤديان إلى عدم إضاعة الوقت والمال في بحث مشكلات بحثت أو تبحث في مكان آخر من الوطن العربي بل توجه الجهود إلى بحث مشكلات أخرى.

وكما نعلم فإن العصر هو عصر الكيانات الكبيرة. وإن مجال التعاون في البحث العلمي هو من أبرر المجالات التي يمكن أن يتحقق فيها التعاون لتحقيق إنجازات علمية كبيرة لا تقدر عليها كل دولة عربية علي حدة.

## ٧ مشكلة المصطلحات

ذكرنا من قبل أن ثمة فجوة حضارية تفصلنا عن الدول المتقدمة. والحقيقة أننا لسنا امتداداً لعصر الحضارة الإسلامية الزاهر. فالحضارة الغربية الحديثة هي العصر التالي لعصر الحضارة الإسلامية وهي امتداد لنموها وتقدمها، أما نحن فقد وقفنا عند ما أنتجه أسلافنا العظماء. ولو شاء الله أن يستمر المد الحضاري الإسلامي وأن يكون عصرنا الحديث في الوطن العربي والإسلامي هو امتداداً لعصر أسلافنا لاختلف الأمر. ولكن الذي حدث هو أن الحضارة الأوروبية هي التي تعد امتداداً

لعصر الحضارة الاسلامية وليست امتدادا للعصور الوسطى الأوروبية المتخلفة. فقد أخذ الأوربيون علوم المسلمين وترجموها الى اللاتينية - لغة العلم آنذاك - ودرسوها في جامعاتهم فكانت أساس نهضتهم وسر تقدمهم في العصر الحديث.

وهذا الأمر لا ينكره المنصفون من مؤرخي العلوم في الغرب، وعلى أية حال فإن قضية تأثير الحضارة الاسلامية في الحضارة الأوروبية من القضايا الصعبة التي تحتاج الى جهد خاص منا نحن، وتحتاج الى تتبع التأثيرات المختلفة وفي جميع الميادين. وإن قياس التأثيرات الفكرية والحضارية ليس من الدراسات السهلة لأن التأثير الكيفي ليس شيئا ملموسا أو محسوسا، وخاصة في قضيتنا هذه حيث نقلت المؤلفات العربية والإسلامية في العلوم كافة الى اللغة اللاتينية وليس إلى اللغات الحديثه. كما كان الأغلبية من مؤرخي العلم في الغرب ينزعون الى أن يعطلوا المسلمين من كل اسهام في الحضارة الاسلامية ويتعمدون إخفاء تأثير المسلمين في علومهم وحضارتهم حتى ينسبوا الى علمائهم هم وحضارتهم هم.

والأمثلة كثيرة، فالدكتور على سامي النشار أستاذ الفلسفة الاسلامية الأكبر يرى أن المسلمين هم الذين ابتكروا المنهج التجريبي وليس فرنسيس بيكون. وقد أثبت ذلك في أحد كتبه الهامة<sup>(١)</sup>. كما يرى الدكتور عبدالحليم منتصر في كتابه تاريخ العلم<sup>(٢)</sup> أن مؤرخي العلوم من الغربيين يتجاهلون عصرين من عصور العلم حدثا في منطقتنا، وهما العصر القديم، أي ما قبل العصر اليوناني، والعصر الاسلامي، ويقتصرون في تأريخهم على العصر اليوناني ثم يقفزون إلى العصر الحديث حتى ينكروا أي اسهام للمسلمين في تاريخ العلم.

وهناك أمثلة فردية كثيرة، مثل ابن النفيس والدورة الدموية، فمن المسلم به أن الطبيب العربي ابن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية، ولكنهم في الغرب

(١) على سامي النشار. مناهج البحث عند مفكرى الاسلام.

الاسكندرية: دار المعارف، ١٩٦٥.

(٢) عبدالحليم منتصر. تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط ٥،

القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢.

لا ينسبون ذلك إليه، كما أن ابن خلدون هو الذى وضع أسس علم الاجتماع ولكنهم فى الغرب ينسبونه إلي أوجيست كونت، وهكذا الكثير. ومؤرخو العلوم فى الغرب يهدفون من وراء ذلك إلى انكار أى إسهام للمسلمين فى الحضارة الإنسانية حتى يسيطر اليأس على نفوسهم ويقتنعوا بدور المتلقى والمستهلك على طول الخط.

وعلى أية حال، فقد حدثت فجوة حضارية تقدر بأربعة قرون تقريبا، حدث فيها تقدم سريع فى الغرب كان انتاجه كما هائلا من المصطلحات العلمية والفاظ الحضارة، ولم تكن هناك عند الدول الغربية مشكلة مصطلحات لأنها هى التى تنتج المفاهيم والأفكار وتعطيها المصطلحات المناسبة.

ولكن المشكلة تبدأ حينما نحاول نقل هذه المصطلحات إلي العربية، وليس ذلك بسبب قصور فى اللغة العربية، ولكن بسبب تكاثر هذه المصطلحات بصورة هائلة دون أية ملاحقة حقيقية من جانبنا، خاصة وأن جهودنا فى الأصل قاصرة عن متابعة ما يصدر. وسوف أعود الى هذه النقطة عند الحديث عن الترجمة سواء ترجمة الكتب أو المواد الأخرى.

ولاشك أن مشكلة تعريب المصطلحات هى من أهم المشكلات التى تجعل الكثير من الباحثين العرب يفضلون كتابة بحوثهم باللغة الانجليزية فهذا أسهل بالنسبة لهم، ولاشك أيضا إن هذه المشكلة من المشكلات الرئيسية التى سوف تواجهنا عند التفكير فى إصدار دائرة المعارف العربية الشاملة، كما انها مما يعوق تقدم العلم ويؤثر على سيولة الكتاب ويؤخر وجود علوم عربية حقيقية.

وقد مرت الحضارة الإسلامية إبان عصر الترجمة بمشكلة مشابهة، كما مرت بها الحضارة الأوربية الحديثة التى نقلت علوم المسلمين، ولكن هذه وتلك تغلبتا على المشكلة فى عصر كان الانتاج الفكرى فيه - ومن ثم عدد المصطلحات - لا يقارن بما هو عليه الآن، وبالتالي فلم تكن المشكلة بالحجم الذى هو عليه الآن.

## ٨ عدم كفاية الخدمات المكتبية والبيبلوجرافية

إن حديثنا هذا موجه إلى علماء وباحثين وأساتذة ومثقفين من جميع المجالات، ولست أحب حينما أتناول النقص في الخدمات المكتبية والبيبلوجرافية أن أغرق في التفاصيل التي تهتم المتخصص في هذه المجالات. ولذلك فسوف أكتفى من هذه القضية بما يمس عامة الباحثين والمثقفين ولا أدخل في التفاصيل الفنية الدقيقة.

وقد تحدثنا من قبل عن ركائز التقدم وهي التعليم والعلم والمعلومات والاعلام، ثم تحدثنا بسرعة عن دور الاعلام، وأفردنا الصفحات السابقة للحديث عن قضايا التعليم والعلم، ونحدث الآن عن المعلومات ممثلة في الخدمات المكتبية والبيبلوجرافية وخدمات المعلومات.

المعلومات هي كل المعرفة والبيانات والحقائق المدونة في شكل من أشكال التدوين على النحو الذي أشرنا إليه في مقدمة الحديث. وعلم المعلومات هو الجانب المتطور من علم المكتبات، ومراكز المعلومات هي الصورة المتطورة من المكتبات. ولذلك نفضل أن نسمي علمنا: علم المكتبات والمعلومات.

ويمكن أن نعرف علم المكتبات والمعلومات تعريفا بسيطا بأنه مجموع القضايا والعمليات التي تهدف إلى توصيل المعلومات المناسبة للمستفيد المناسب في الوقت المناسب وبالقدر المناسب ويتم تحقيق ذلك من خلال سلسلة من العمليات تبدأ بالتخطيط لإنشاء الخدمات المكتبية بكل عناصرها من موقع ومبان وأثاث وتجهيزات وتمويل وقوى بشرية، الخ، ثم من خلال الحلقات الرئيسية في سلسلة العمليات الفنية، وهي توفير مصادر المعلومات، ثم تنظيم هذه المصادر من خلال الفهرسة الوصفية والتحليل الموضوعي بكل عناصره من تصنيف وفهرسة موضوعية وتكشيف، ثم عن طريق تقديم الخدمات المكتبية وخدمات المعلومات من خلال جميع مؤسسات المكتبات والمعلومات. ويدخل في ذلك كله استخدام التقنيات الحديثة وأهمها الحاسب الالكتروني في جميع مراحل العمل.

وإذا كنا قد نجحنا في تقديم إطار بسيط للخدمات المكتبية، الخ. فإننا نذكر الآن أن القصور والنقص يشملان كل جوانب هذا الاطار وكل مراحل العمل بدءا باختيار الموقع وإقامة المبنى ومرورا بكل العناصر السابقة حتى تقديم الخدمات.

أما عن الخدمات الببليوجرافية فلن نحاول كذلك الدخول في التفاصيل العلمية والفنية، ويمكن أن نعرف فقط الضبط الببليوجرافى أو التنظيم الببليوجرافى ومن خلال ذلك يمكن أن نتعرف على الخدمات الببليوجرافية.

يمكن أن نعرف التنظيم الببليوجرافى، وهو أوسع من الضبط الببليوجرافى - بأنه دراسة للوسائل التى تمكن من الوصول إلى المعرفة المدونة، وذلك من خلال السيطرة على السجلات المكتوبة والمطبوعة وحصرها وتنظيمها وتقديمها إلى الباحثين من خلال الأنواع المختلفة من الببليوجرافيات: الوطنية والشاملة والموضوعية وغيرها. وكل أنواع الببليوجرافيات تلعب دورها، ولكن النوع الأخير وهو الببليوجرافيات الموضوعية له دور هام وفعال فى البحث العلمى.

وليست الببليوجرافيات بطبيعة الحال شيئا منفصلا عن المكتبات؟ فالخدمات الببليوجرافية تقدم من خلال المكتبات، وهى تكون جزءا من الجهاز الببليوجرافى الشامل للمكتبات الذى يضم الى جانب ذلك فهارس المكتبات والكشافات. ولذلك فسوف نوحّد الحديث عنهما.

فإذا انتقلنا إلى دور الخدمات المكتبية والببليوجرافية فى البحث العلمى، فسوف نجد أن الباحث يبدأ أولى خطواته فى البحث بتحديد الموضوع أو المشكلة. وحتى تتضح الصورة أمامه فلا بد أن يقرأ فى الموضوع. أى أن البحوث تبدأ فكرتها فى المكتبة وأثناء القراءة يتوقف الباحث عند نقطة أو قضية أو مشكلة يبدو له أنها لم تبحث بالقدر الكافى وأنها تحتاج الى مزيد من القراءة والبحث. وهنا تكون أولى خطواته فى بحثه داخل المكتبة وتتم فيها. وحتى البحوث التطبيقية لا تبدأ فى المعمل أو المختبر وإنما تبدأ أيضا فى المكتبة وأثناء القراءة حتى يوسع الباحث من مداركه أولا، ثم يدرك المشكلات التى تبحث والمشكلات التى تحتاج إلى متابعة البحث.

فإذا ماتوقف الباحث عند نقطة معينة يدرك أنها فى حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث وقرر أن يشرع فى بحثها - إذا مافعل هذا فإن عليه أن يتأكد أولا هل هذه المشكلة قد سبق بحثها أم أنها لم تبحث، وهنا لابد أن يذهب إلى الخدمات الببليوجرافية والتكشيفية فى مجال تخصصه . فإذا وجد أن الموضوع لم يتم بحثه والانتهاه منه، فإن عليه أن يتأكد مرة أخرى إن كان الموضوع قيد الدراسة والبحث وذلك من خلال كشافات أخرى .

فإذا تأكد الباحث أن المشكلة لم تبحث وأنها ليست قيد البحث حينئذ يمكن أن يشرع فى دراستها مطمئنا إلى أنه لا يضيع وقته فى بحث مشكلة بحث أو تبحث . ومن هذا يتضح أن الخطوتين الأولى والثانية فى البحث العلمى تتمان فى المكتبة ومن خلال مصادرها .

ينتقل الباحث بعد ذلك إلى الخطوة الثالثة أو المرحلة الثالثة وهى جمع ببليوجرافية البحث، وهذه أيضا تتم فى المكتبة ومن خلال جهازها الببليوجرافى .

ثم تبدأ المرحلة الرابعة وهى جمع المادة العلمية وهذه المرحلة أكثر المراحل اعتمادا على المكتبة؛ فالباحث فى هذه المرحلة يكاد يقيم فى المكتبة لكى يراجع مصادره ويجمع مادته وهى أطول المراحل .

وإن أى بحث يعتمد على مثلث: الباحث، الموضوع، المعلومات . فإذا افترضنا أن هناك باحثا جيدا فإن هذا الباحث عليه أن يختار موضوعا جيدا، والمكتبة تساعده فى ذلك . ثم عليه بعد ذلك أن يقوم بالبحث نفسه معتمدا على مصادر المعلومات . فإذا كانت مصادر المعلومات كاملة فإن دراسته للموضوع سوف تكون كاملة، وإذا اعتمد على مصادر غير كاملة فإن من المرجح أن بحثه لن يكون كاملا وهذا أمر بديهى .

والصورة السابقة تتم بحذافيرها فى الدول المتقدمة، حيث تقف المعلومات سندا للبحث العلمى . أما فى الدول العربية وغيرها من الدول النامية فإن القصور يشمل

كل جوانب أو مراحل العمل . ولذلك فيمكننا أن نفترض أن الأبحاث التي تعتمد على مصادر معلومات عربية وتتم في المنطقة العربية هي أبحاث غير كاملة، ذلك لأنها تعتمد على مصادر غير كاملة. فنحن لم ننجح حتى الآن في حصر أو ضبط مصادر المعلومات، ولم ننجح في تنظيمها، ولم ننجح في إنشاء البليوجرافيات والكشافات بكل أنواعهما. ولذلك فالباحث عندنا يخطئ يخطئ عشواء ويعتمد على مصادر غير كاملة وطرق ارتجالية أو عفوية في تتبع مصادر المعلومات .

وتحدث الطامة الكبرى حينما يكون البحث في موضوع يتعلق بالدراسات الاسلامية أو العربية فيذهب الباحث إلى المصادر العربية وهي المصادر الأصلية أو الأولية Primary Material، فيجدها غير محصورة وغير منظمة، فيضطر إلى اللجوء إلى المصادر باللغات الأجنبية، وهي في هذه الحالة تعد مصادر ثانوية Sec-ondary، وفي هذا مافيه من خطأ منهجي، إذ يجب الاعتماد على المصادر الأصلية أو الأولية. وليت الأمر يقتصر على الخطأ المنهجي، بل إن المصادر الغربية الثانوية كتبها مستشرقون غربيون وهي موجهة أساسا إلى القارئ الغربي، وكثيرا مايكون هدفها تشويه صورة الإسلام وأهله أمام القارئ الغربي، والنيل من المسلمين وتجريحهم. ولم يسلم من ذلك كتاب الله العزيز ولا شخص الرسول الكريم ﷺ. ولذلك يقع الباحث العربي المسلم في هذا الشرك فتتلون أفكاره - إلا من عصم الله - بأفكار خبيثة هدفها الطعن في الإسلام؛ وهذا كله يحدث بسبب النقص في الخدمات المكتبية والبليوجرافية.

وقد أخذنا تأثير الخدمات المكتبية والبليوجرافية في البحث العلمي كمثال لوضوح دورها في هذا المجال بالنسبة للعلماء والباحثين والمثقفين. ولكن دور الخدمات المكتبية والبليوجرافية يشمل كل جوانب الحياة: فالمكتبة المدرسية لها دور مهم في غرس عادة القراءة وعادة التفكير في الطفل، والمكتبة العامة لها دورها الهام في تثقيف الشعب وفي تعليم الكبار، والمكتبة الجامعية لها دورها في دعم عملية التعليم الجامعي والبحث العلمي الذي يتم في الجامعة، وهكذا.

كما أن المعلومات لها دورها فى جميع المجالات: السياسية والاقتصادية والزراعية والعسكرية والادارية، وفى اتخاذ القرارات، وما إلى ذلك، وإنما اكتفينا بمثال واحد فقط منعا للاطالة .

وسوف نعود الى هذه النقطة فيما بعد عند الحديث على القراءة .

ومما هو جدير بالذكر أن العوامل السابقة جميعا والتي ذكرناها على أن معوقات للعمل العلمى - ومن ثم على الانتاج الفكرى - هذه العوامل تصدق بصورة أو أخرى على أجزاء الوطن العربى، قد تصدق كلها على جزء واحد من هذا الوطن أو قد يصدق بعضها فى مكان أو آخر، أو تختلف درجتها هنا أو هناك، فتكون حادة فى مكان وأقل حدة فى مكان آخر من الوطن العربى . ولكن هذه العوامل فى مجملها موجودة ومؤثرة فى كل أجزاء الوطن العربى وتؤثر على مسيرة العلم والثقافة .

ولا ينفى وجود هذه المعوقات وتأثيرها فى أجزاء من الوطن العربى أن تكون هناك نماذج مشرقة هنا وهناك . ولكننا فى موقفنا هذا لايمكن أن نتحدث بلغة الخصوص وإنما نتحدث بلغة العموم والا لضاق المجال عن استيعاب حديثنا، خاصة وأنا نتناول موضوعا شاملا يكاد يغطى كل قضايانا العلمية والثقافية . ومما لاشك فيه أن من يهتم هذا الحديث سوف يتجاوبون معه بسرعة، وأنا على ثقة من ذلك لأنهم عاشوا كثيرا من التجارب التى أحدث عنها وربما عانى منها كثير منهم، ولذلك فإن الإشارة هنا تكفى .

ونعود الآن إلى: مراحل العمل العلمى فنتناول كل مرحلة على حدة .

## التأليف والمؤلفون

المؤلف هو أهم عنصر فى عملية إنتاج الكتاب . فبدون المؤلف لا توجد الحلقات التالية جميعا من نشر وطباعة وتوزيع وقراءة، فهذه جميعا تعتمد على عمل المؤلف .

والمؤلف هو المسئول عن متن الكتاب، وهناك إلى جانب التأليف أنواع أخرى من المسئولية عن النص: الترجمة، والتحقيق، والإشراف والتحرير، والمراجعة، والجمع، والتكشيف، وما إلى ذلك من مشاركات - وكل المعلومات التي ذكرناها في الصفحات السابقة تؤثر على عملية التأليف وما يدخل في حكمه، كما تؤثر عوامل أخرى كثيرة، منها: ضعف العائد المادي الذي يحصل عليه المؤلف؛ ذلك أن تكلفة إنتاج الكتاب تشتمل على نفقات عامة overhead charges غير قابلة للتخفيض، مثل ثمن الورق، وتكاليف الطباعة، والتجليد، وحصة الموزع.

وهذه العناصر كلها في ارتفاع مستمر. والناشر لا يستطيع أن يتحكم في أى عنصر من هذه العناصر، بل هي التي تتحكم فيه، فلا يجد الناشر أمامه إلا المؤلف المسكين الذي هو سبب عمل الجميع فيخفض مكافأته على قدر ما يستطيع، وبعض الناشرين يتمنون أن لو استطاعوا ألا يعطوا المؤلف شيئاً على الإطلاق!! وقد سمعت ذلك بنفسى من أحدهم. وهو ناشر حظله من التعليم والثقافة يقترب من القاع وكان يتعامل مع بعض عمالقة الفكر في وطننا. وكان يقول: يكفى أنه ينشر لبعض الناس. وكان هذا الناشر يتندر ويحكى الطرف عن بعض تعاملاته مع المؤلفين وكأنه صاحب فضل عليهم!!

وهذا كله يؤثر بطبيعة الحال على المؤلف وعلى إنتاجه. فالمؤلف لا يسعده أن يرى عمله يستغل أمامه ويستفيد به غيره ولا يحصل هو على ثمرة عمله بينما يحصل غيره ممن لم يبذل الجهد مثله على هذه الثمرة ويحرمه منها، وقد يكون فى أمس الحاجة الى عائد عمله.

ولذلك فإن الذين يستمرون فى بذل الجهد فى التأليف والترجمة، الخ. هم هؤلاء الذين ائتمروا أنفسهم بالحق الأدبى والمعنوى دون الحق المادى. ولهذا فلم نسمع أن هناك مؤلفاً فى وطننا العربى عاش من الكتابة فقط وتفرغ لها، وإنما هو يحتاج إلى عمل آخر يعيش منه، بل وأحياناً ينفق منه على إنتاجه العلمى أو الثقافى. وهذا ينقلنا إلى نقطة أخرى، وهى عدم تفرغ العلماء والمؤلفين. ولهذا

يضيع معظم وقتهم فى أعمال أخرى وما تبقى من وقتهم يقضونه فى التأليف والبحث، وقد يشغلهم العمل تماما عن البحث والتأليف وتمتصهم الحياة اليومية والمشاكل المعيشية بأنقالها وهمومها فتستهلكهم تماما، فىكون السؤال: أيعيش أم لايعيش هو وأولاده، والاجابة واضحة.

وهذا مصير سىء جدا للباحث العالم، وهو يؤثر فى مجمله على انتاج المؤلفين. القضية هى أننا لانريد أن يكون البحث العلمى والعمل الثقافى مسئولية الانسان الذى يعمل فى هذا المجال وحده، بل يجب أن يلقى المساعدة والتشجيع حتى لايعمل على مسئوليته فإن أجاد كان بها وإن ضغطت عليه ظروفه توقف.

وقد قارنا فيما سبق بين الانتاج الفكرى العربى والانتاج الفكرى الأجنبى، واتضح من ذلك أن الانتاج العربى لايقارن بمثيله فى الدول المتقدمة. ولاشك أن ضعف العائد المادى وعدم تفرغ المؤلفين وعدم تشجيعهم ورعايتهم هى من عوامل ضعف هذا الانتاج من حيث الكم والكيف.

## الترجمة والمترجمون

الترجمة هى فى الغاية من الأهمية بالنسبة للدول النامية، وخاصة فى المرحلة الأولى من مراحل تطورها، فهذه الدول يجب أن تبدأ من حيث انتهت الدول المتقدمة، إذ ليس من المعقول أن توقف عجلة الزمن وتبدأ من حيث بدأت تلك الدول وتقضى القرون الطوال فى الوصول إلى ماوصلت إليه، لأنها إذا فعلت ذلك تكون الأمم المتقدمة قد سبقتها بقرون أخرى. فإذا أردنا أن تبدأ الدول العربية من حيث انتهت الأمم المتقدمة فلا مفر من الترجمة.

وقد بدأت الحركة العلمية عند المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ وفى المدينة المنورة حيث مهاجره ووفاته، وكان القرآن الكريم وحديث الرسول هما مدار الحركة العلمية فنشأت علوم الدين الإسلامى: علوم القرآن، علوم الحديث، علم أصول الفقه، وعلم الفقه، الخ. كما نشأت علوم اللغة العربية مرتبطة بالعلوم الدينية،

وذلك لأنها ضرورية لفهم الكتاب العزيز وأحاديث الرسول ﷺ، ولذلك إعتبرها كثير من العلماء مكملة للعلوم الشرعية حيث أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وبعد أن نشأت العلوم الشرعية واستقرت بدأ المسلمون فى القرن الثانى الهجرى حركة ترجمة للعلوم التى كانت لدى الأمم التى فتحوا بلادها، واقتصرت الترجمة بطبيعة الحال على العلوم العقلية، وهى الشعبة الثانية من العلوم، وتسمى أحيانا علوم العرب فى مقابل علوم العجم، وأحيانا تسمى العلوم الحكمية نسبة إلى الحكمة التى هى الفلسفة، وأحيانا تسمى العلوم الأجنبية أو الدخيلة. ويدخل فى هذه العلوم الرياضيات والطب والكيمياء والفيزياء وغيرها من العلوم الطبيعية.

فالحركة العلمية بدأت بالعلوم الدينية واللغوية، وهى العلوم النقلية التى تكون شخصية الأمة ولا يجوز للأمة أن تستفيد فيها من المصادر الأجنبية، ثم انتقلت إلى ترجمة العلوم العقلية التى وجدتها عند أصحاب الحضارات السابقة. ثم هضم المسلمون هذه العلوم واستوعبوها وأضافوا إليها الكثير والكثير من اسهاماتهم الخاصة.

والنوع الثانى من العلوم تشترك فيه الأمة مع غيرها من الأمم، وهى التى تكون الآن ما يعرف بالعلوم البحتة والتطبيقية، وهى علوم لاتصل بذاتية الأمة وإنما حقائها مشاع عام يمكن أن تسهم فيه كل أمة بقدر مايسعفها علمها وبقدر ماتملك من إمكانات بشرية ومادية، فإذا كانت الأمة متخلفة فيها عن غيرها من الأمم فلا مفر أمامها من الترجمة.

وقد فعل الغربيون فى بداية نهضتهم الحديثة نفس الشئ، فقد أخذوا علوم المسلمين وترجموها وتعلموها وجعلوها أساس نهضتهم العلمية التى نشهدا الآن.

فلما أفاق المسلمون فى العصر الحديث وجدوا أنفسهم وقد تأخروا عن غيرهم بعد أن كانوا سادة العالم علما وحضارة، وخاصة فى العلوم البحتة والتطبيقية التى

هى دعامة الحضارة الحديثة، حضارة عصر الصناعة. وقد وجدوا فى هذا الصدد أنه لا مفر أمامهم من تعلم هذه العلوم، فوفدوا إليها أو وفدت إليهم وقطعوا فى ذلك مراحل متفاوتة، لكن الطريق أمامهم لا يزال طويلا.

وهذه العلوم تمر فى وطننا العربى بمراحل ثلاث، وهذه المراحل ليست جامعة مانعة، بل كثيرا ماتكون متداخلة:

١ - مرحلة النقل والترجمة.

٢ - مرحلة المحاكاة والتقليد.

٣ - مرحلة الابتكار والتأصيل.

ولا يمكن الدخول الى مرحلة التأصيل الا بعد المرور بمرحلة الترجمة، اللهم إلا فى الأبحاث الأكاديمية الأصيلة، وخاصة تلك التى ترتبط ببحث مشكلات أو قضايا محلية. وحتى فى هذه الأعمال فلا مفر من استفادة حقائق علمية مما ظهر ونضج فى الغرب، فالباحث هنا يترجم لنفسه.

ولا شك أن جل اعتمادنا فى العلوم البحتة والتطبيقية بوجه خاص هو على حقائق نمت ونضجت فى الغرب، ولكى نصل إلى مرحلة التأصيل فلا بد من النقل أو الترجمة، سواء أردنا أم لم نرد. وهناك أعمال قد يستكف البعض من أن يسميها ترجمة، ويرى أن كرامته العلمية تأبى عليه ذلك ويسميها تأليفا، فى حين أنها فى حقيقتها نقل أو ترجمة. وليس من الضرورى أن يكون النقل أو الترجمة لكتاب واحد معين. ولكنه قد يكون لأفكار من كتب أو مقالات متعددة، أى يكون عمل المؤلف مجرد عرض للأراء والأفكار. وهذه لا يمكن اعتبارها أعمالا أصيلة، بل هى ترجمة أو نقل، أو تقليد فى أحسن الأحوال.

فالتأصيل الحقيقى هو أن نتج أفكارنا نحن وحقائقنا ونظرياتنا وأبحاثنا الخاصة بنا ثم نسجلها فى منشوراتنا، وهذا ما يحدث فى الدراسات التى لها طابع البحث. ومعنى ذلك أن مرحلة الترجمة مستمرة حتى مع دخولنا مرحلة التأصيل ببعض

الدراسات والأبحاث، فهذه هي الرسالة المستمرة للترجمة: أن نعرف منها ماوصل إليه البحث العلمى فى الدول المتقدمة، وطالما ظلت هذه الدول متقدمة عنا فسوف تستمر الترجمة، بل انها يمكن أن تستمر حتى بعد ذلك.

وبقدر مانسرع فى الترجمة بقدر مانضيق من الفجوة التى تفصلنا عن الدول المتقدمة، الأمر الذى يستلزم وضع خطة شاملة على مستوى الوطن العربى لترجمة كل علم من العلوم وتعريب مصطلحاته. وهذا ينقلنا الى المشكلات التى تعانى منها الترجمة ويعانى منها المترجمون فى الوطن العربى.

أول هذه المشكلات ضخامة الانتاج الفكرى الذى يجب ترجمته قياسا إلى قدرات المترجمين فى الوطن العربى. وهذا أمر بديهى، فإن عدد المؤلفين هناك أكبر بكثير من عدد المترجمين هنا. وقد تحدثنا من قبل عن الانتاج العالمى من الكتب واتضح انه يزيد سنويا عن ستمائة ألف كتاب. وهذا الانتاج يزيد بسرعة هائلة. وحتى تستكمل الصورة، وحتى نوضح مدى جسامته المسئولية نعطى احصاءات أخرى.

سوف نأخذ مجالا واحدا هو الكيمياء: فالانتاج الفكرى فى مجال الكيمياء كما تمثله المستخلصات الكيميائية

### Chemical Abstracts

والتي بدأت فى الصدور عام ١٩٠٨، هذا الإنتاج يعطى دلالات كثيرة على سرعة نمو النشر العلمى من ناحية وعلى كثرة الانتاج الفكرى الحالى من ناحية أخرى:

المليون الأول من المستخلصات استغرق الوصول اليه ٣١ سنة

المليون الثانى من المستخلصات استغرق الوصول اليه ١٨ سنة

المليون الثالث من المستخلصات استغرق الوصول اليه ٧ سنوات

المليون الرابع من المستخلصات استغرق الوصول إليه أقل من ٥ سنوات<sup>(١)</sup>.

وهكذا!! فانظر إلى سرعة الدورة ونمو النشر العلمي. فانتاج ٣١ سنة في بدايات القرن العشرين يمكن الوصول إليه في النصف الثاني من هذا القرن في أقل من خمس سنوات. والآن هذا المليون يمكن الوصول إليه في أقل من ستين. وهذا مجال واحد من مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، وهناك مجالات أخرى كثيرة منها الطب، والهندسة، والفيزياء، الخ.

وهناك التقارير الفنية، وهي شكل حديث نسبيا من أشكال النشر، وعلى درجة عالية من الخطورة والأهمية. ويقدر رصيد الانسان من هذا الشكل بما يزيد على اثني عشر مليونا والزيادة السنوية تزيد على ستمائة ألف تقرير.

انظر إلى ضخامة الانتاج ثم انظر إلى سرعة النمو، الأمر الذي يعنى ضخامة وتعقد مشكلة الترجمة، ثم زيادة تعقدها، لأننا كلما تقاعسنا عن وضع الخطة وعن الاسراع في تنفيذها كلما زاد تعقيد المشكلة حيث ينمو الانتاج بسرعة مذهلة.

وإذا كانت المشكلة الأولى هي كثرة الانتاج العالمي، فإن هناك مشكلات أخرى تزيد من تعقيد قضية الترجمة، من هذه المشكلات قلة عدد المترجمين بسبب ضعف العائد المادى الذى يحصلون عليه، والذى لا يتناسب مطلقا مع الجهد المبذول، وخاصة في المجالات العلمية بالمعنى العام؛ ومنها أيضا النظر الى الترجمة على أنها عمل علمى من الدرجة الثانية، وعدم تقديره أو الاعتراف به عند تقويم صاحبه، مع أن الترجمة عدى علمى راق وتنطوى على جهد ومعاناة لا يعرفهما إلا من كابدها. وهي بهذا لاتنقض من كرامة العالم، وخاصة إذا كان يتخذ منها وسيلة لغاية نبيلة وهدف سام هو توطئة اكناف العلم وتمهيد السبيل أمام وجود علوم عربية أصيلة. وفي هذا الصدد ينطوى تعريب المصطلحات على جهد خاص وله قيمة خاصة.

(١) اعتمدنا في هذه الاحصائات وغيرها على المصدر التالى:

ورغم هذا فإننى لا أدعو بطبيعة الحال الى اعتبار الترجمة هى أساس التقويم، ولكنى أدعو الى النظرة الى الموضوع من زاوية الأهمية والجهد، والى تقدير المترجمين ماديا ومعنويا حتى يقبل العلماء على الترجمة ولا ينصرفوا عنها.

وأختم حديثى عن الترجمة والمترجمين ببلورة بعض المقترحات :

١ - اذا كنا نريد حقا للحاق بركب التقدم العالمى فلا بد من وضع خطة للترجمة لأن الانتاج الفكرى العالمى من الضخامة بحيث لا يمكن مواجهته بالجهود الفردية.

٢- من الضرورى توجيه الاهتمام نحو اعداد المترجمين، وهذا يتطلب:

(ا) إنشاء معاهد لتأهيل المترجمين.

(ب) الاهتمام بتعليم اللغة العربية واللغات الأجنبية حيث أن الترجمة تحتاج الى تعلم اللغة العربية واللغة المترجم عنها.

(ج) أن يهتم العلماء بتوحيد المصطلحات وتعليمها للمترجمين حتى لاتستمر حالة الفوضى الحالية.

(د) أن يهتم العلماء بنشر تجاربهم فى مجال الترجمة والتعريب لاثراء المجال وتشجيع الآخرين على الترجمة.

(هـ) اعادة النظر فى القواميس اللغوية بحيث تدخل فيها الألفاظ والاستعمالات الحديثة التى تساعدهم فى الترجمة.

(و) الاهتمام بوضع قواميس للمصطلحات فى كل علم من العلوم تساعد المترجمين على سرعة الوصول الى تعريب الألفاظ وتسهم فى توحيد المفاهيم والمصطلحات.

(ز) تشجيع المترجمين ورفع قدرهم وتقدير رسالة الترجمة فى تقدم العلوم ووضع أسس العلوم العربية فى كافة المجالات.

## المخطوطات العربية

تمثل المخطوطات العربية البعد الزمني للكتاب العربي، فهي تشتمل على نتاج أكثر من اثني عشر قرناً، وهي تضم ثمرة الحضارة العربية الاسلامية. وقد دخلت الطباعة إلى مصر ولبنان أولاً. ويمكن أن نعتبر تأسيس مطبعة بولاق في عهد محمد علي البداية الحقيقية لدخول الطباعة إلى الوطن العربي، وإن تأخرت عن ذلك كثيراً في معظم الدول العربية.

ويجب ألا ننظر إلى المخطوطات على أنها ماضٍ نعتز به فحسب، بل إن لها أهميتها في الحاضر والمستقبل؛ فالمخطوطات هي وعاء الفكر الاسلامي. وخصوصية الفكر الاسلامي أنه مستمد من الاسلام، ولذلك فإنه يمثل شخصية الأمة الاسلامية ويحدد أهدافها ومبادئها. فإذا أردنا أن تكون لنا أهداف تمثل فكرنا وشخصيتنا فلا مفر من الرجوع إلى التراث المخطوط لمجمعه ونشره ونستفيد مما فيه من كنوز فكرية هي أساس حضارتنا في الماضي والحاضر والمستقبل، وتمثل الجانب الروحي من هذه الحضارة، كما تمثل العلوم البحتة والتطبيقية الجانب المادي منها.

وهذا هو ما يميزنا عن الأمم الأخرى، ان فكرنا مستمد من الاسلام، وبالتالي فإن الذي اختار لنا أهدافنا وفكرنا ووظائفنا ودورنا في الحياة هو الخالق العظيم جلت قدرته، لهذا يجب أن نتلمس رسالتنا في الحياة في تراثنا وألا نلتفت بمنة أو يسرة.

وقضية المخطوطات قضية كبرى تحتاج إلى معالجة مستقلة، مثلها مثل كثير من القضايا التي وردت في هذه الصفحات، ولكن قضية المخطوطات لها خصوصية لأن مشكلات المخطوطات مختلفة عن قضايا الحركة العلمية الأخرى.

ويكفي هنا أن نشير إلى أن الجهود التي تبذل لحصر المخطوطات وجمعها ونشرها وتحقيقها والاستفادة منها، هذه الجهود على قيمتها وأهميتها لاتزال جهوداً محدودة جداً، وإذا استمر الايقاع على هذا النحو فسوف نحتاج إلى آلاف السنين

لكى تحل هذه المشكلة. ولذلك من الضروري وضع خطة للعمل تشتمل على عناصر متعددة على تفصيل فى ذلك لايتسع المقام له<sup>(١)</sup>

## النشر والطباعة والتوزيع

النشر رسالة وصناعة وتجارة. وتعنى الرسالة أن للناشر رسالة علمية، فعليه أن يبحث عن الأعمال الجيدة، وأن يبحث عن المؤلفين الأفذاذ، وأن يشجع المؤلفين الناشئين. بل إن رسالة الناشر تعنى أن يفكر هو فى المشروعات العلمية والأعمال والمراجع ذات القيمة العلمية وأن يتبناها، ويقدم التسهيلات للمؤلفين حتى يتموها وينفق عليها خلال فترة اعدادها التى قد تطول دون انتظار للعائد السريع.

ورسالة الناشر تعنى أيضا أنه قد يتجه أحيانا إلى نشر أعمال علمية ذات قيمة حتى ولو كانت غير مربحة أحيانا. أى أن اهتمام الناشر برسالته قد يجعله يخسر أحيانا فى سبيل نشر أعمال علمية محققة القيمة وغير مربحة من الناحية التجارية.

فإذا ما نظرنا إلى عالم النشر فى وطننا العربى، فسوف نجد أن الصورة مختلفة تماما عما ذكرت. ويمكن أن نقسم الناشرين الى قسمين: الناشر التجارىون أو الافراد أو القطاع الخاص، والناشر الحكوميون أو القطاع العام.

فإذا تناولنا الناشرين الأفراد، فسوف نبحت دون جدوى عن وجود رسالة للنشر لديهم، إذ أن نظرة هؤلاء الناشرين إلى النشر هى نظرة تجارية فى الغالبية العظمى من الحالات، فالغالب على الناشر فى وطننا العربى هو جانب التجارة ولا يفكر كثيرا أو قليلا فى الرسالة، فهو يجرى وراء الكتب الرائجة تجاريا والتى تحقق له أعلى ربح ممكن فى أقل فترة ممكنة، والكثيرون منهم تجار أخطأوا طريقهم إلى

(١) إذا كان المجال لم يسمح بتناول قضية المخطوطات بالتفصيل، ومعها قضية الأصالة والمعاصرة وغيرها من الأمور، فإننى أحيل القارىء الى بحث نشر فى مجلة الدارة بالرياض، وأعيد نشره مع مجموعة أبحاث فى كتابنا: بحوث فى المكتبة العربية. الكويت: دار القلم، ١٩٨٥، وهو بعنوان: قضية التراث كما أن البحث الأول فى الكتاب المذكور، وهو بعنوان: الخدمات المكتبية للطفل العربى وسبل تطويرها، يتناول فكر الأمة الاسلامية ورسالتها بتفصيل أوفى

السلعة، فبدلاً من أن يتاجر في أى سلعة أخرى اتجه إلى الكتاب.

والكتب الرائجة هي من خمس فئات: الكتب الدينية، وهذه قيمتها ثابتة ولها جمهورها الثابت والمستمر لأن نسبة عالية من القراء متدينون. وهذه الكتب يطبع منها أعداد كبيرة جداً بالنسبة لغيرها من الكتب.

والفئة الثانية هي كتب التراث، سواء كانت كتباً دينية أو لغوية أو أدبية أو تاريخية أو نحوها. وهذه أيضاً لها جمهورها الثابت والمستمر وتطبع عدداً لا بأس به من النسخ وربما طبعت أكثر من طبعة.

والفئة الثالثة هي كتب الساعة، وهي الكتب التي تتناول قضايا جارية يهتم بها جمهور القراء، وغالباً ما تكون قضايا سياسية أو مذكرات شخصية كتبها شخصيات سياسية أو صحفية أو عسكرية لعبت دوراً في الحياة العامة. وهذه الكتب ليس لها قيمة دائمة مثل الكتب الدينية وكتب التراث ولكنها توزع عدداً كبيراً من النسخ لأن جانباً من الجمهور العام يهتم بها. وقد كثرت هذه الكتب في العقد الأخيرين وصدرت منها - ولا تزال تصدر - أعداد كبيرة، وتبارى الناشر في الجري وراءها حتى يحققوا لأنفسهم كسباً سريعاً.

والفئة الرابعة هي القصص التي ينشرها كبار الروائيين، وهذه أيضاً لها جمهور كبير، وإن كان جانب كبير من القراء يحصلون عليها من المكتبات العامة.

أما الفئة الأخيرة - الخامسة - فهي الكتب الدراسية، وهي توزع عدداً كبيراً من النسخ كل سنة وخاصة في التخصصات ذات الأعداد الكبيرة وإن كانت قيمتها العلمية محدودة.

ويحاول كل ناشر أن يسند نفسه من خلال نشره كل سنة لعدد من الكتب من هذه الفئة أو تلك من الكتب الرائجة، ولذلك فإن السؤال الأول الذي يسأله كثير من الناشرين إذا عرض عليه كتاب ينشره - هذا السؤال الأول هو أن يسأل المؤلف: كم تتوقع أن يوزع من هذا الكتاب، وهل هو كتاب دراسي، إلخ.

ولسنا نريد أن نقسو على الناشرين، وليس هدفنا مطلقا تقديمهم أو تجريحهم فهذا شيء لم يخطر بالبال، وإنما هدفنا أسمى من ذلك بكثير: أن شخص المشكلات التي يعاني منها العمل العلمى والنشر جزء هام أو حلقة هامة فيه.

والناشر على أية حال قد يكون معذورا فهو لا يريد أن ينفق ماله فى كتب يكدها فى مخازن. ولكن كنا نريد منهم أن يعطوا شيئا من الاهتمام لرسالة النشر، وأن يقدموا الى عالم النشر والكتاب أعمالا علمية لها قيمة محققة حتى وإن لم يكن لها جمهور كبير.

وأنا أكتب هذا الكلام ويحضرني عدد قليل من الناشرين اهتموا برسالة النشر وقدموا أعمالا علمية لها قيمة محققة دون أن ينتظروا العائد المادى. ويحضرني فى هذا الصدد الناشر الذى اهتم بطبع كتب الجغرافى العربى العبقرى الأصيل أستاذنا الدكتور جمال حمدان، فقد استمر فى طباعة كتبه حتى بعد أن ترك العمل فى الجامعة. ولكن وجود حالة أو عدة حالات لاينفى القاعدة بل يثبتها.

وهذا ينقلنا الى أهمية وجود الناشر الحكومى الكفء. والحق أن الكتاب ليس شيئا عاديا فهو غذاء العقل، ومن ثم فهو أهم من الخبز بالنسبة للناس، ثم إنه بالنسبة للأمة أفضل استثمار. فاذا كانت الدول النامية تدعم الخبز والسلع الاستهلاكية الأساسية، فإن من الضرورى أن تدعم الكتاب أيضا. ويكون هذا الدعم فى صور متعددة:

١- تبنى المشروعات العلمية الكبيرة، مثل دوائر المعارف والقواميس وغيرها من الأعمال التى يحجم الناشرى الأفراد عن تبنيتها لأنها تحتاج إلى وقت وجهد ومال ولا تحقق عائدا سريعا. وهذه المشروعات العلمية تفتقر إليها المكتبة العربية بشدة، وهى مسئولية الدولة ولا يقدر عليها الأفراد.

٢- تبنى الكتب العلمية الجيدة التى ليس لها جمهور كبير من القراء. أى أن يكون الناشر الحكومى ناشر من لا ناشر له، وإلا فأين يذهب مؤلف جيد ليس لكتبه جمهور لأى سبب من الأسباب.

٣ - تبنى قضية الترجمة، وقد تحدثنا عن الترجمة بما فيه الكفاية.

٤ - تبنى المؤلفين الناشئين، وهؤلاء هم كتاب المستقبل ومن واجب القطاع العام تشجيعهم حتى يقفوا على أقدامهم.

٥ - دعم سعر الكتاب، فلعل من الأسباب التي تؤدي الى عزوف الكثيرين عن القراءة أن أسعار الكتب غالية، وهي تفوق القدرة المالية لمعظم الناس. وهنا يجب على الدولة أن تدعم سعر الكتاب حتى يصدر بسعر يكون فى متناول الجميع.

ومما يؤدي إلى غلاء الأسعار أن مواد صناعة الكتاب من آلات طباعة وأوراق وأحبار وغيرها تخضع للضرائب فى بعض الدول، فالكتاب يعامل فى هذه الحالة مثله مثل أى سلعة أخرى: مصدر دخل للدولة. ويمكن أن يتمثل دعم الدولة للكتاب فى هذا الجانب فى اعفاء الكتاب من أية رسوم حتى بالنسبة للناسشرين الأفراد حتى تشجعهم على النشر وتمكنهم من خفض سعر الكتاب.

تلکم هى رسالة الناشر الحكومى، فكيف الحال فى وطننا العربى الحبيب. الواقع أن الناشر الحكومى لا يوجد أصلا فى بعض البلاد العربية، وان وجد فهو لا يؤدي رسالته بالصورة التى ننتظرها. ومن أبرز عيوب الناشر الحكومى أن الأهواء قد تتدخل فى بعض الأحيان لاجازة كتاب أو عدم إجازته. ومن المشكلات أيضا تفشي البيروقراطية وتأخير ظهور الكتب. ولا بأس هنا من أن أروى تجربة شخصية ولكنها ذات دلالة عامة. فقد كتبت فى مقدمة أحد الكتب التى ترجمتها، وهو من أهم الكتب فى مجاله<sup>(١)</sup>، كتبت ما يأتى:

«ولم تكن ترجمة الكتاب بالأمر السهل، فهو - كما سنرى - كتاب صعب ومركز، وهو يضم عددا كبيرا من المصطلحات العلمية والفلسفية التى تتطلب ترجمتها جهدا مضنيا، كما استلزم الرجوع الى الترجمات والتعريفات التى توصل

(١) الفهرس المصنف: أسسه وتطبيقاته، تأليف جيسى شيرا، مرجريت إيجان؛ ترجمة عبدالوهاب أبو النور. جدة. شركة مكينات عكاظ، ١٩٨٣. والقصة لم تنته عند حد ما كتبه هنا فلها بقية فى مقدمة الكتاب.

اليها الفلاسفة والمناطق العرب - قدماء ومحدثين - في مظانها حتى تجيء على وجه الدقة والأمانة.

«وبعد جهد وعناء تمت الترجمة لتبدأ قصة نشر الكتاب وليس بوسعى أن أحكى الآن تفاصيل هذه القصة، فلم يحن الوقت بعد لذلك. ولست أشك في أن الكثيرين قد مروا بتجربة مشابهة.

«أريد فقط أن أقول أن هذه القصة تمثل مأساة الكتاب المصرى فى حقبة من الزمان ومعها مأساة العمل العلمى، فكل الظروف تقول لك: لا تكتب، لا تؤلف، لا تترجم، لا تعمل، كلها ظروف تنفرك من بذل الجهد. ويكفى أن أقول فى هذا الصدد أن هذا الكتاب قد استغرقت ترجمته ثلاثة شهور، واستغرق نشره ثمان سنوات، وأنه دخل المطبعة وخرج عدة مرات، وأنه قد أنفق عليه لكى ينشر أضعاف ما أنفق عليه من الوقت لكى يترجم، بين دهاليز الموظفين وجبابرة المكاتب كما يسميهم الدكتور حسين مؤنس.

وهذا الكتاب بما تعرض له من معوقات نموذج ممتاز لما يمكن أن يواجهه الكتاب العربى فى عالم النشر ولذلك فإننى ذكرته هنا كمثال وليس حكاية شخصية. والجزء الذى حكيت من القصة كان مع ناشر حكومى. وبقية قصة الكتاب مع ناشر تجارى.

والحق أقول أن تجارى مع النشر والناشرين تحتاج الى حيز أوسع بكثير وقد يأتى يوم من الأيام تكتب فيه هذه التجارب بالتفصيل أما الآن فتكفى الإشارة.

وخلاصة القول أن الناشر الحكومى ليس فى كثير من الحالات أفضل من الناشر الفرد، بل قد يكون الأخير فى بعض الحالات - اذا تجاوزنا عن قضية المال - أسرع حسماً، ولذلك قد يشجع هذا المؤلفين على الاتجاه الى الناشر الفرد.

ومن العوامل التى تعوق تداول الكتاب العربى وتدفعه وانسيابه - إضافة إلى ما ذكرت - عدم وجود شبكات المكتبات العامة فى كثير من الدول العربية.

ولا نقصد بشبكات المكتبات العامة وجود عدد من المكتبات العامة فى أى قطر من الأقطار دون وجود خطة شاملة، بل نقصد وجود شبكات توفر الحد الأدنى من الخدمة المكتبية لكل فرد فى الدولة. هذه المكتبات العامة لها وظائف متعددة، ونخص منها هنا وظيفتين أساسيتين: التثقيف والتعليم؛ تثقيف جموع الشعب، فهى جامعات حرة تؤدى دورها فى تثقيف وتعليم جموع الشعب دون أى قيد من سن أو جنس أو لون أو دين.

ثم دورها فى تعليم الكبار؛ والكبار هم الذين فاتهم سن التعليم النظامى أو وقفوا فيه عند حد محو الأمية ويريدون استكمال تعليمهم. والمكتبات العامة لها دور هام فى تعليم هؤلاء الكبار من خلال برامج وكتب توضع خصيصا لذلك.

نقول أن المكتبات العامة لها دور كبير فى إنسياب الكتاب فهى قاعدة قرائية كبيرة، ومن ثم فهى يمكن أن تشتري عددا كبيرا من نسخ الكتاب الذى تختاره وتسهم فى توزيعه لمصلحة الناشر والمؤلف وفى هذا تشجيع لهما.

ومن العوامل التى تعوق تدفق الكتب وإنسيابها ضعف العلاقات الثقافية بين أجزاء الوطن العربى، وخاصة بين المشرق والمغرب. وثمة حادثة لها دلالة، فقد كنت فى سنة ١٩٧٦ أقوم بجولة علمية موفدا من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للإشراف على تنفيذ أحد المشروعات العلمية الكبرى لتلك المنظمة، والتفاهم حول كيفية العمل والتنفيذ. وحينما كنت بالمغرب عقدت إجتماعا مع محافظ دار الكتب الوطنية بالرباط. وقد حملنى رسالة شفوية إلى شيخ الأزهر فى مصر آنذاك. وكان شيخ الأزهر قد زارهم وقبل أن أصل إليهم بفترة وجيزة. وقد طلب منى المحافظ أن أذكر شيخ الأزهر بأن يرسل مطبوعات الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية الى دار الكتب الوطنية بالرباط، وكان مما قاله: إن الكتب كانت تصل من مصر إلى المغرب فى عهد المخطوطات وأيام كانت تنقل على الجمال أسرع مما تصل الآن فى عصر الطباعة والطائرات والاتصالات!!

وإذا كنت قد أعطيت هذا المثال وذكرت هذه الواقعة فلأنها تدل دلالة كبيرة على

ضعف العلاقات بين المشرق والمغرب . . . وهناك حقيقة يعرفها العاملون في أقسام التزويد بالمكتبات العربية وهي أنهم لا يعانون كثيرا من الكتاب الأجنبي ولكن معاناتهم كلها مع الكتاب العربي في كل مراحلها .

ثم نأتى إلى آفة أخرى من آفات النشر في وطننا العربى وهى ظاهرة التزوير؛ وهو يعنى تصوير الكتب وبيعها دون إذن من الناشر أو المؤلف . وهذه الآفة عار على عالم النشر فى بلادنا لأنها ظاهرة غير أخلاقية . لقد عرف عالم الفكر ما يعرف بظاهرة السرقات الأدبية Plagiarism فكان الشاعر يأخذ بيتا أو أكثر أو يسرق معنى بيت من الشعر أو أكثر . وهذه قصص مشهورة فى التراث العربى .

ثم عرف عالم الكتب ظاهرة الاقتباس، ووضعت ضوابط وأصول للاقتباس . أما الآن فإن عالم الكتاب عندنا قد عرف ظاهرتين جديدتين :

اقتباس عمل بأكمله وتضمينه عملا آخر دون ذكر الأصل مطلقا؟

أو تصوير كتب بأكملها وبيعها دون إذن الناشر أو المؤلف . وفى هذا مافيه من إفتتات على حقوق الاثنين المادية والأدبية .

والمشكلة هى أنك لاتستطيع الرجوع على المزور لأنه قد يكون فى قطر آخر وليس هناك قضاء تلجأ إليه . وقد كان من الممكن حل هذه المشكلة لو وجدت إتحادات حقيقية للناشرين ، ولكن هذه الاتحادات غير موجودة أحيانا وغير فعالة أحيانا أخرى . نحن فى حاجة إلى موائيق أخلاقية تضع الأسس لأخلاقيات مهنة النشر لمنع مثل هذه الأعمال .

ونصل فى نهاية المطاف مع النشر والطباعة إلى أن الكتاب العربى أيضا هو دون مستوى الكتاب الأجنبى فى الطباعة والتجليد مع أن تقديم المعلومات فى وعاء جيد يشجع على القراءة .

## القراءة

إن الحلقة الأخيرة فى الدورة هى مرحلة القراءة وقبل أن تبدأ دورة جديدة .

والقراءة هي الهدف النهائي للتأليف والصناعة، إلا فالمؤلف لديه رسالة معلوماتيه يريد أن يوصلها إلى القارئ. وكل المراحل التي تقف بين هاتين النقطتين هي وسائل لتحقيق غاية هي القراءة. وما لم يصل الكتاب إلى القارئ فإنه لا يكون أدى رسالته.

وتصل الكتب إلى القراء عن طريقين: عن طريق الشراء، وعن طريق المكتبات. والنقطة الأولى تتعلق بتسويق الكتاب أو توزيعه وهي حلقة مكتملة للنشر والطباعة. وهذه تتطلب الإعلان عن الكتاب في مظان الطلب عليه حتى يصل إلى القارئ. وحينئذ يكون أدى رسالته.

والطريق الثاني هو طريق المكتبات. والمكتبات ومراكز المعلومات تشتري الكتب وغيرها من المواد وتقوم بتنظيمها وتقديمها للمستفيدين وهم جمهور القراء، وعلى اختلاف في ذلك بين أنواع المكتبات: الوطنية والعامية والمدرسية والجامعية والمتخصصة. وقد ذكرنا منذ البداية أننا لن نتعمق في تفاصيل الاجراءات الفنية للمكتبات وأنا سوف نلمس الجوانب التي لها علاقة بالبحث والقراءة فقط، وأشرنا الى أن القصور يشمل جميع جوانب المكتبات من المباني إلى القراءة والخدمات البليوجرافية. ذكرنا ذلك عن حديثنا على معوقات العمل العلمي، ولاشك أن معوقات العمل العلمي هي معوقات للقراءة.

ولنا بعد كل هذا أن نسأل السؤال الهام:

## هل نحن مجتمع قارئ؟

ولاشك أن قارئ هذه الصفحات يعرف الإجابة!! فهل ينتظر من مجتمع يكتنف العمل العلمي فيه كل هذه العوائق، ويؤثر على الكتاب والقارئ كل هذه المؤثرات السلبية، هل ينتظر منه أن يكون مجتمعا قارئا. اظن أن الإجابة معروفة.

إن المعوقات السابقة جميعاً قد أدت إلى أن يتشكل فكر المجتمع تشكيلا معاكسا للقراءة بحيث أنها في الأعم الأغلب لا تشكل جزءا من الاهتمامات الأساسية

للفرد أو وسيلة من وسائل قضاء وقت الفراغ، وإنما إنجبه أفراد المجتمع إلى وسائل أخرى .

والقراءة - علاوة على كل ما ذكر - تواجه منافسة شرسة من الوسائل الأخرى للتشقيف، ومن الوسائل الأخرى لقضاء وقت الفراغ، مثل الاذاعة والتلفزيون والصحافة وغيرها من الوسائل .

هذه الوسائل توجد في الدول المتقدمة إلى جانب الكتاب أيضا، ولكن الكتاب يأخذ مكانه الطبيعي بينها. فقد ظهر التلفزيون مثلا في الدول المتقدمة بعد أن استقرت عادات وتقاليد هذه الدول واستقرت عادات القراءة والبحث والتشقيف فيها، فكان ظهور التلفزيون طبيعيا ووجد جنبا إلى جنب مع الكتاب والمجلة .

أما في بلادنا العربية فقد ظهر التلفزيون مواكبا لحركة التعليم في كثير من البلاد، فما كادت هذه الدول تخطو خطواتها الأولى في التعليم والعلم وقبل أن يبدأ الأفراد في تكوين عادات القراءة - حتى داهمهم التلفزيون بضجيجهم فكان الاختيار أمامهم سهلا حيث أن الكثيرين منهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى درجة النضج . ولذلك كانت المنافسة غير متكافئة، فلم يحدث التوازن الذي نلجده في الدول المتقدمة .

## خاتمة

إن الصورة التي رسمتها هذه المحاضرة هي صورة قائمة إلى حد كبير، والحقيقة أنني لم أعد بغير الحديث عن الهموم والمشكلات والمعاناة .

والآن هل من سبيل إلى الحل؟ هل هناك أمل؟ الحقيقة أنه لا بأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، ومادامت هناك حياة فهناك أمل . ولكن كيف السبيل إلى الحل، هذا هو السؤال المهم والملح بعد أن طوفنا بالهموم والمشكلات .

ونقول بداية: بضدها تتميز الأشياء، وأول طريق الشفاء هو تشخيص الداء، ومادما قد عرفنا العوائق والمشكلات فإن حل المشكلات يكون بإزالة العوائق .

وهذا كلام جميل ولكنه لا يقدم الحل العملى للمشكلات .

وليس من السهل أن نقدم الحل لأدواتنا فى وصفة طيب وفى كلمات عجلية .  
فالمشكلات التى تعرضنا لها مشكلات قرون طويلة وآفات أزمان مديدة، وعقد  
تكونت فى كل مجال من مجالات الحياة .

ويحتاج حل هذه المشكلات إلى أن يجتمع أهل كل علم أو مجال ويحددوا  
المشاكل ويضعوا الحلول ويبدأوا فى التنفيذ .

ولكن هناك أمورا عامة تضعنا على بداية الطريق . وأول هذه الأمور بلورة فكر  
الامة وأهدافها ورسالتها فى الحياة، ثم تحويل هذا الفكر وهذه الأهداف الى  
استراتيجيات ووظائف يعهد بها إلى المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية  
ومؤسسات المعلومات لتنفيذها .

وفكر الامة الاسلامية وأهدافها ورسالتها صاغها لنا الحق تبارك وتعالى حيث  
يقول :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون  
بالله» .

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس...» .

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً» .

وإذا كانت الشعوب التى يقال عنها متقدمة قد وضعت فكرها وصاغت أهدافها  
ورسالتها بمعايير البشر، فإننا خير أمة أخرجت للناس ليس بمعايير البشر ولا بمعايير  
القوة فى عالم اليوم ولكن بقول الحق تبارك وتعالى الذى إذا أراد شيئا فإنما يقول  
له كن فيكون، فهل نهض بهذا الدور ونكون جديرين بفضل الله سبحانه وتعالى .

إن تحديد الدور يجب أن يسبق أى شيء آخر حتى لانخطب خطب عشواء ونضل  
الطريق، فنكون فى أحسن الأحوال تابعين لهذه المدرسة أو تلك من مدارس الفكر  
مع أن فكرنا خير فكر لأننا خير أمة أخرجت للناس .

يجب إذن أن نحدد ما الذى يجب أن يكون عليه عناصر الفكر الإسلامى وعناصر الثقافة الإسلامية وهذا سوف يحدد لنا الطريق الذى يجب أن نسير فيه لبعث الفكر الإسلامى الحق واعادة المسلمين إلى عناصر قوتهم ليعودوا كما كانوا عليه من قوة وعزة ومنعة وتقدم وإزدهار وليقودوا العالم كما قادوه بالأمس، فهذه هى رسالة الأمة الإسلامية، تصديقا لكلام المولى جلت قدرته .

فإذا نظرنا إلى مائحن عليه الآن وما يجب أن نكون عليه لوجدنا البون شاسعا والشقة بعيدة والفجوة هائلة: أمة أراد لها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس، هى ماهى عليه الآن من تخلف وتبعية وتشتت وإنقسام .

نحن نحتاج إذن إلى أن نحدد أولا ملامح الفكر الإسلامى الحق، وملامح الشخصية الإسلامية والثقافة الإسلامية الأصيلة، وأن نميز الأصيل من الدخيل، والشمين من الزائف . وهذا يحتاج منا إلى الرجوع إلى ينابيع الفكر الإسلامى الحق، ثم نعرض عليه مصادر الثقافة المعاصرة ومكوناتها لنميز الخبيث من الطيب ونأخذ مايتسق معه ونلفظ ماعداه .

وبعد صياغة الفكر وتحديد الأهداف فإن الحل يبدأ بإصلاح التعليم ومعه المكتبات، ومن هنا أهمية المكتبات المدرسية لأننا يجب أن نبدأ بتعليم الطفل العربى المسلم لاعادة تجديد الفكر وبناء الإنسان .

والله سبحانه من وراء القصد وهو ولى كل نعمة وهو حسبنا ونعم الوكيل .